

حمار عراقي يحصل على الجنسية الأمريكية

الدكتور جاسم العبودي

ليس الأمر مزاحاً.. ولا تظن أنني أمتدح الجنود الأمريكيان؛ فهم ليسوا ملائكة هبطوا من السماء السابعة.. فمخالب الإحتلال ما زالت تنهش الجسد العراقي.. ودماء "ملجأ العامرية" و"سجن أبي غريب" لم تجف.. والحمد لله - بوجودهم - ولدنا توائم؛ بعد تسعة أشهر من عسر الولادة: حكومة الترضية أم 42 وزيراً، والقادمة أم 77، ومجلس رئاسي رابع غير دستوري؛ المجلس الوطني لترضية شخص.. وذبح "مبدأ الفصل بين السلطات"، حين صوت 109 نواب على اعفاء 3 قياديين للكتلة العراقية من قرار إجتهات البعث... إلخ.. وإلا تحولنا مثل دول الطوائف في الأندلس.. والحكمة من هذه الحكاية تعتمد على فطنتك..

والقصة وما فيها.. في فجر يوم قارص ملبد بالغيوم.. أعلنت صفارات الإنذار في جميع أرجاء قاعدة وحدة المارينز اللوجستكية الأميركية المقيمة آنذاك في محافظة الأنبار.. ظناً من المارينز أن المقاومة العراقية قد انقضت عليهم بنفس سياستهم "الأرض المحروقة".. ورغم إطلاق النار المكثف وصرخاتهم التي تنم عن الرعب.. لم يسمعوا سوى نهيق حمار منهك..

وأخيراً.. أفتيد "أبو صابر" إلى داخل القاعدة.. ومثل أمام الكل في ساحة "العرضات".. بين ترحيب البعض.. وتهكمات آخرين.. هل نسيتم أن شرطة الشرفاء فككت حماراً ملغماً بـ 50 كغم من المتفجرات قبل فترة؟.. وقال آخر: ربما أنه أحد المطلوبين في قائمة أُلـ 55 متكرراً.. وثالث: "الحكومة والبرلمان مطّلعين روح العراقيين.. وهم يطلعون قهرهم بالمطي.. يضربوه ألف مره.. حتى لَمَا يمشي يضربوه.. مرة صوندة.. مرة كييل.. مره يشماغ.. مره حزام.."، ورابع: "خطيه .. هارب من تفجيرات ألام القاعدة والمتشددين.. ويطلب لجوء سياسياً في بلدنا"..

"عين الحسود بيها عود".. يبدو أن الحظ "كعَدَّ قعد" - كآخرين ممن باعوا ضمائرهم - مع صاحبنا "أبو صابر".. حين استدعى كولونيل المارينز جون فولسوم أمر القاعدة كبير الأطباء الجراحين في القاعدة لمداواته ومعالجة الجروح على سيقانه ووجهه.. وخصص له خوان؛ المجدد المكسيكي، لتنظيفه ورعايته وإطعامه ولنزهته يومياً.. وأمر مسؤول المؤن أن يخصص له زريبة خاصة به مع علف مُحسَّن مع جميع وجبات الأكل المستوردة لجنوده من نبراسكا..

كما استدعى "أمين السجل المدني في القاعدة" ليختار له خير الأسماء، ومنحه بطاقة شخصية.. فاختر له اسم "سُموك" (دخان).. والأهم من ذلك قراره القاطع بإعتبار هذا الحمار في تلك القاعدة "أحد العاملين فيها"، لأن الأوامر العسكرية تقضي "بمنع تواجد الحيوانات داخل القواعد العسكرية"..

وبضربة حظ.. تحولت زريبة مستر سُموك إلى متحف نادر.. حيث أفرغ فيه المارينز إبداعهم ومخيلاتهم ومعارفهم بمعونة أتباعهم.. فقد كُتب على بابه: سُموك وكنيته أبو صابر وأبو زياد مع أوقات زيارته، وتحتها البيت التالي:

زياد لست أدري مَنْ أبوه؟..... لكن الحمار أبو زياد

وعندما تدخل يقع نظرك على الآية الكريمة: "وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ، وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ"، وكأنهم يقولون للزائر "ممنوع الكلام في حضرة سُموك"..

وأول ما تفتح باب سُموك، عفواً مستر سُموك.. تسمع سيمفونية المغني؛ سعد الصغير، الشهيرة "حبك يا حمار".. وأما جدرانه تراها مليئة بالصور والأقوال والأشعار العربية مترجمة للإنجليزية، ومنها:

"إذا سمعتم أصوات الديكة فسلو الله من فضله، فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوزوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً".. فإذا زاره أحد - وما أكثرهم! - وصادف وقد نهق سُموك.. إرتفعت الأصوات: هَلُّوياً.. هَلُّوياً.. هَلُّوياً.. تغطيها الضحكات من الشيطان الزائر..

وفي لوحة بخط مُذهَّب تقرأ قصيدة الشاعر المبدع؛ أحمد مطر - وهو من بين آلاف المنسّين في هذا الوطن - وهو بقدر ما يندب حال "معتقلي الرأي" يلعن الظلّمة.. "ويا ما في السجن من مظالم":

"وقفت في زنزانتني
أقلب الأفكار أنا السجن ها هنا
أم ذلك الحارس بالجوار ؟
فقال لي الجدار:
إن الذي ترثي له قد جاء باختياره
وجئت بالإجبار
وقبل أن ينهار فيما بيننا
حدّثني عن أسدٍ
سجّانه حمار !"

ومن الطرف الممتعة ما خُط في خميلة بنفسجية.. "قال الضرير بشار بن برد (96-168 هـ)؛ وهو إمام الشعراء المولدين: رأيت حماري البارحة في النوم ، فقلت له: ويلك لم متّ ؟ قال الحمار: أنسيت أنك ركبتني يوم كذا وكذا، وأنك مررت بي على باب الأصبهاني، فرأيت أتاناً عند بابهِ فعشقتها، حتى متُّ بها كمداً ؟ ثم أنشدني الحمار:

سَيِّدِي مَلَّ بَعْنَانِي نَحْوَ بَابِ الْأَصْبَهَانِي
إِنَّ بِالْبَابِ أَتَانًا فَضَلْتِ كُلَّ أَتَانٍ
تَيَّمَنْتِي يَوْمَ رَحْنَا بَثْنَايَاهَا الْحِسَانَ
وَبَغْتِ وَدَلَالٍ سَلَّ جَسْمِي وَبِرَانِي
وَلَهَا خَدَّ أُسَيْلٍ مِثْلَ خَدِّ الشَّيْفَرَانِ
فَبَهَا مَتُّ وَلَوْ عِشْتُ إِذَا طَالَ هَوَانِي !

فقال له رجلٌ من القوم: وما الشيفران يا أبا معاذ (بشار) ؟ قال بشار: هذا من غريب لغة الحمير، فإذا لقيت حماراً فاسأله..

أولاد الأبالسة.. حتى اللهجة المصرية أجادوها بفضل التعاون الوطيد !.. فكتبوا فلسفة حمار:

"عجبي عليك يا ابن آدم.. يا كبير الدار قومت الدنيا وماقعدت لما قالوا عنك حمار.. هو اسمي مو شتيمة ولا وصمة عار ؟ خلقتني ربي وخلقك ولا حدش له خيار.. أنا مهما زاد حملي صابر.. عمري ما قلت إشمعني صاحبي وأخويا وأنا لا..

ولا أبص لرزق غيري.. عايش في حالي متهني..
لا عندي زوجة تنكد علي ليل ونهار.. ولا أدفع لحمارات مهر ولا اسوره
حر نفسي.. لا عندي حزب ولا أنتمي لأحزاب.. لا أشجع كورة.. وأنا جوعان..
الحين عرفت يا ابن آدم مين الحمار؟"

وللتهكم من موروثنا الشعبي في الشتائم السوقية الشائعة وعنصريتنا حتى مع الحمير، عندما
نغضب من شخص ونصفه بالغباء نقول له "مطي"، وإذا فار دما لطنشاه "بمطي ابن مطي" .. كتب
أحد المارينز: في أوروبا يقولون للمطي حتى يمضي Excuse Me Please Move On
ويتحرك بكل هيبة..

ويبدو أن السياسة دخلت في "النص"، فعلق أحدهم شعارالحزب الديمقراطي الأمريكي؛ وهو
الحمار، "كناية عن الصبر"، الذي ينتمي إلى فصيلته بوش الأب والإبن ومن لف لفهم..

ويقابله ما خطه أحدهم: يعتبر السادس من أكتوبر من كل عام يوم الحمار في التقويم الجمهوري
الفرنسي.. وأحمد الله أنني ولدت في الثامن من أكتوبر...

والصور كثيرة.. ورغم أن الحمار قد وجد لأول مرة في الصومال حالياً قبل ما يقارب 12 ألف
سنة.. علقوا في متحف سموك: صورة حمار في رسومات مصرية 1298-1235 ق م.

ورسم آخر من مصر القديمة؛ رسم الإله ست؛ إله الصحراء والعدم بشكل حمار في المعابد
القديمة، كرمز لمساعدته الإله را "رمز الشمس" خلال رحلته في العالم السفلي "الكسوف".

ولم ينسوا صورة جحا وحكمه البارعة مع حماره في الأدب الشعبي.. وصورة حمار القاعدة في
الشرقاط.. وهي على التوالي:



وأوغلوا في حبهام لمستر سموك.. فقد وضعوا خزانة وثيرة قرب رأسه.. تحسباً من إصابته بالأرق من هموم بطء تشكيل الحكومة وعدم كفاءة الكثير من وزرائها.. أوتفشي وباء "الحملة الإيمانية" .. عندها يقوم نادله؛ **خوان** بقراءة ما طاب له من كنوز أدب الحمير.. ولأصابتنا بفقر دم سريري في القراءة، لم أقتطف إلا النزر اليسير من أدب الحمير لعشاق الحمير فقط، منها:

كتب شيخ المسرح توفيق الحكيم: **حماري قال لي؛ حمار الحكيم؛ حماري الفيلسوف؛ حماري ومؤتمر الصلح؛ الحمير؛ بسام الجابي، أخبار الحمير في الأدب العربي؛ منصور الحازمي، الحمار في الأدب العربي؛ عباس محمود العقاد، أحسن حمار (قصة مصرية) في مجلة الإثنين؛ عبداللطيف عبدالحليم، "شخصية الحمار.. بين الشاعر الأندلسي (خمينيث) وحمزه شحاته"، جريدة الشرق الأوسط 1987/11/9م؛ عادل العبد المغني، الحمار.. في التراث والأدب الكويتي، 2007 م؛ صالح محمد الغفيلي، الحمار في الأدب (أبو صابر) 2002؛ محمد العيد الخطراوي، قراءة في بعض دفاتر الحمير، محمد بن عبد الله الحمدان، "أكثر من عنوان عن هذا الحيوان (1-2)، فيه أكثر من مائة لأسماء كتب عن الحمير.. ومن كتب الأدب العالمي:**

Juan Ramón Jiménez, Platero y yo، الأسباني خوان رامون خمينث (1881-1958)، أنا وحماري (بلاتيرو)، الحائز على جائزة نوبل في الآداب عام 1956.

والحكيم هو الأب الروحي لكتاب الحمير المصرية في الأدب المعاصر، ترك رصيماً هائلاً من أعماله التي بلغت 100 مسرحية و 62 كتاباً. ويروي الحكيم "أن حماره سأله ذات يوم عن الفرق بين معشر الحمير ومعشر الأدميين. فأجاب الحمار: وجدت أن الفرق الأساسي بيننا وبينكم هو أنكم تعرفون النفاق، ونحن لا نعرفه وقد عللت نفسي ومنيته بحلم جميل؛ هو أن تعلمني النفاق، لأنه لو أمكنني تعلم النفاق، وإدخاله في فصيلة الحمير لانقلبنا مخلوقات مثلكم".

يربكم .. هل كُتبت بهذه الكثرة والجودة عن سياسي معاصر أو برلماني؟! .. إذن لِمَ تتنازرون بحمار.. وابن حمار.. أما يخجلنا أن نهادن الظلمة والطواغيت ونقذف حمم ذلنا على الحمار:

ولو لبس الحمار ثياب خُرٌ لقال الناس يا لك من حمار!

وفي خارج المكتب البيضاوي لمستر سموك.. زرع له **خوان** دونمين من البرسيم المكسيكي ليهنأ به صباح مساء برفقته.. وكثيراً ما يمرّ به المتطفلون من المارينز ليأخذوا معه الصور لبيعوها لإبنائهم في نبراسكا عبر الرسائل الإلكترونية.. ولا تخلو من نكاتهم اللاذعة؛ فالملازم سميث يقول لخوان، ملمحاً لما نشره ويكيليكس عن قول أحد الملوك: "لا أثق بهذا الرجل إنه عميل إيراني" .. فيردّ عليه **خوان**: "والخيل والبغال والحمير لتركيبوها وزينة" .. وثان يقول له: إشكر الرب لم يكن أتاناً "حمارة" وإلا أصابه ما أصاب المجندات من المغامرات.. إلخ..

وثالث متهماً من تهافت الساسة والأحزاب على المناصب: "أنا أمير وأنت أمير لعد منو يسوق الحمير" .. ورابع له ينشد البيت التالي، وكثيرون لا يعرفون معناه:

إذا أقبلت باض الحمام على الوتد وإذا أدبرت بال الحمار على الأسد

ويبدو أن سمعته قد سبقته إلى أمريكا.. فأصبح سموك بالنسبة لأطفال المارينز الذين تربوا مع الشخصية الكارتونية المتكلمة "دونكي" التي ظهرت في مسلسل أفلام "شريك"، تجسيدا لشخصية "دونكي" السينمائية على الرغم من أنهم لم يروا منه سوى صورته التي بعثها أبائهم لهم.

ودخل عالم الشهرة.. وعلى خطوتين من هوليوود.. فأجرت صحيفة كريستيان ساينس مونيتور مقابلة خاصة لهذا الغرض مع الكولونيل المارينز جون فولسوم والتي قال فيها: "إن جنود المارينز ليسوا جميعهم قساة القلوب، نحن ضعفاء جداً أمام الأطفال والحيوانات".. وأضاف "سموك بالنسبة لي هو رمز للتواضع والسلام".. يا عيني على السلام!!!.. وقال فولسوم مذكراً بفضائل "سموك": "لقد عمل معنا بأقصى قدرته لجعل عوائلنا سعيدة"..

أه يا زمن الغدر!!! آلاف وآلاف من أصحاب الكفاءات في العراق وخارجه لم تذكر فضائلهم.. مهمشين، غرباء في الوطن وخارجه.. لم يعرفهم إلا ثلثة.. لأنهم لم ينتموا لحزب..

عندها سارعت الصحف والمواقع العراقية، كعادتها في الكشف عن الفضائح والجرائم من صحف أجنبية، فكتبوا: "حمار عراقي محظوظ".. "حمار عراقي ينقل إلى أميركا"... إلخ..

يقول داود البصري عن مستر سموك حيث أصبح "محطاً لحسد الملايين من أولئك الساعين للهِجرة للعالم الجديد وللحم الأمريكي من أبناء العروبة السعيدة، بما فيهم ملايين العراقيين خصوصاً. فالفرصة التي أتت لذلك الحمار كانت بمثابة تحول تاريخي حيث سينعم في ربيع العمر بالإحترام والتيار الكهربائي والأكل النظيف وحقوق الحيوان، وسيخلص نهائياً من الإحتقار والتهميش والمحاصرة والفساد والرشوة.

ونتائج سفر ذلك الحيوان ستنعكس بالتأكيد على وضع الحمير في الشارع العراقي بدءاً من بغال وحمير كردستان التي تعاني من التعسف والعمل الشاق، ووصولاً لحمير البصرة التي تتعرض للتجويع، ولربما للتطهير العرقي وللتعطيش من الجانب الإيراني، بسبب شحة المياه وارتفاع نسبة الملوحة في المياه، إضافة للتهديدات الإرهابية المستمرة، والتي وصلت لحدود تفخيخ الحمير، وإعتبارها إحدى أسلحة المقاومة الشريفة أو المشبوهة.

بكل تأكيد ستنتفض حمير الجنوب وستتضامن معها بغال وحمير الشمال وستشكلان معا جبهة نضالية شامخة تأبى الانفصال والانقسام، وستتعرز جهود النضال من أجل حقوق جماهير البهائم المحرومة، التي أكل رجال السياسة الجدد في العراق أعلافها وخيراتها وياتت أسوة بأربابها وأصحابها تطلب الهجرة والرحيل بعيداً، من أجل حياة أفضل وأكثر أمناً.. وستظل النعمة التي حصل عليها ذلك الحمار بصبره ودأبه موضعاً لحسد الحاسدين..

وقبل فترة قليلة.. رحلت وحدة المارينز اللوجستية الأميركية إلى قاعدتها في نبراسكا.. "رَوْحَهُ بلا رَدَّة".. وقال ميجور في الجيش إنه قد أعطى "سموك" لأحد شيوخ العشائر في الأنبار، والأخير بدوره أعطاه لعائلة تسكن في الفلوجة. وحين أراد فولسوم استرجاعه وجلبه إلى الولايات المتحدة، بادر الشيخ بالإتصال بالعائلة..

فقال العائلة: ثبت خلال أحد إختبارات الذكاء أن الحمار أكثر ذكاء من البقرة، ولولا سوء حظه، لحصل على درجة دكتوراه مزورة كما فعل الكثير، لذا فهو حمار مشهور، ونحن نريد 30 ألف دولار ثمننا له.. لكن شيخ العشيرة ساومهم على دفع مبلغ أقل لإرساله إلى نبراسكا.. وأخيراً تمّ التوصل إلى إتفاق يرسل "سموك" جواً من مطار الكويت إلى أمستردام، ومن هناك إلى واشنطن ثم نبراسكا.. لكن الكويت أوقفت السماح للحمير بدخول أراضيها. وعلق فولسوم: "أمل أن يأتي الحمار قبل حلول عيد الميلاد، وإذا لم يكن ممكناً من خلال الكويت فليكن من خلال الأردن أو تركيا" .. وأخيراً حُمل بطائرة كويتية خاصة إلى أمستردام..

لقد ذهب الحمار بأمّ عمرٍ فلا رجعت، ولا رجوع الحمار

وحتى أطيل عليكم.. يقول صادق الطريحي في مقالته "حمار الشعراء" في (2006/6/24)، وبعد إنتهائي من كتابة المقالة، عرضتها على الهيئة العامة لنادي الشعراء الحمير، فقررت إصدار البيان الآتي:

"بما أننا نعيش اليوم في عصر الحرية، والديمقراطية والتعددية الأثنية، والتسامح الديني والمذهبي والفكري ... و... و...، نعلن عن تأسيس (نادي الشعراء الحمير) ليشارك في الحياة السياسية والثقافية للبلد، ويدعو إلى نبذ العنف وضرورة التعايش السلمي، بين البشر وجنس الحمير في العراق" ..

لا أخفيكم أنني كنت أجهل تماماً أن سموك لديه مناصرون أكثر.. كم هو محظوظ هذا الجحش العراقي الوسيم! .. خير له من شبح العيش تحت ظل دولة قندهارية قادمة..

2010/12/28